

الصبر الاستراتيجي والذكاء التكتيكي

دأب معظم المثقفين العرب المنتمين لعقائد دينية وقومية على تذكيرنا بثناء بلاد العرب مع التركيز على الصعوبات التي تحول دون تقدمهم، ومن بينها سيطرة نظم حكم فردية مستبدة على السلطة، وتآمر قوى الاستعمار الغربي ضدهم. ومع أهمية هذه الأمور، إلا أن الادعاء بثناء العرب يُهمل حقائق كثيرة مُرة، فيما يعكس فهما خاطئاً لمعنى الثراء والفقر والتخلف والتقدم. إن من المؤكد أن لدى العرب مصادر طاقة ومعادن وأماكن سياحية وأراضي زراعية وموارد بشرية كثيرة؛ لكن كل هذه الموارد تحتاج لمن يدرك قيمتها أولاً؛ ولديه المعرفة الكافية بأمر الإدارة لاستغلالها ثانياً؛ وتوجيه النتائج لتسريع عمليات التنمية والتحرر ثالثاً. إن استخدام مقاييس التقدم والتخلف يقود إلى نتيجة واحدة تقول: العرب أمة متخلفة في الاقتصاد والسياسة والثقافة والعلوم والفكر والفلسفة والطب والهندسة وعلوم الكمبيوتر عن معظم شعوب العالم؛ إذ لا يوجد مجال علمي أو ثقافي أو اقتصادي يتفوق العرب فيه على غيرهم من الشعوب.

تسببت التغيرات التي شهدتها العالم حديثاً في تعزيز أهمية العلم والفكر والاقتصاد والإعلام، على حساب العقائدية السياسية والدينية والثقافات التقليدية وأساليب التواصل القديمة. ولقد نتج عن ذلك تكريس أهمية المادة والمصلحة الذاتية على حساب القيم والمصلحة العامة، وإعلاء شأن الصورة المرئية على حساب الكلمة المكتوبة. وهذا يحتم تغيير طرق التفكير التقليدية، ونظم إدارة المؤسسات، والاهتمام بتنمية الموارد البشرية، وتحديث نظم التربية والتعليم والمناهج الدراسية. لكن الواقع يشير إلى أن العرب لم يتحركوا لتغيير طرق تفكيرهم، أو تطوير نظم التعليم في بلادهم، أو تشييد مؤسسات تفكر وتنتج علماً، أو تجميع قواهم وتوظيف مواردهم لبدء ثورة صناعية تمكنهم من اللحاق بالعصر. مع ذلك، لم يتوقف العقائديون عن تذكيرنا بانجازاتنا التراثية، وتهديدنا بالنفي من التاريخ إذا تجرأنا على نقد التراث. لذلك أصبح العرب كلما تزايدت أعدادهم كلما تضاءلت أهميتهم، وكلما تم اكتشاف المزيد من الموارد الطبيعية في بلادهم كلما أصبحت مواردهم عبئاً أكبر عليهم.

إن الانظمة العربية التي نفت المفكرين والعلماء، وسمحت للمطرفين بتكفير كل ذي عقل، واحتكرت الإعلام ورسالته الجماهيرية، واهملت قضايا تطوير الثقافة والتعليم، تتحمل مسؤولية ما يحدث اليوم في بلادها ومن حولها من أحداث جسام تُهددها بالفناء؛ فهذه انظمة تتصف عموماً بقصر النظر وضعف الوعي؛ وبسبب ذلك، ارتكبت أخطاء تقترب من مرتبة الخطيئة، وقامت بأفعال تقترب من مرتبة الجريمة، فيما قادت الأخطاء الناتجة عن قصر النظر وضعف الوعي ونفي الفكر إلى تقويض قدرات الدولة على تشييد مؤسسات اجتماعية وثقافية قادرة على تنظيم الجماهير وحشدها، وتوجيهها نحو التمسك بثوابت وطنية وقيم إنسانية تُوحدها، وتدفعها نحو النهضة والتعايش مع العصر. كما تسببت تلك الأخطاء في كبت تطلعات الجماهير، وهدر طاقات بشرية كثيرة، وتهجير بعضها من اوطانها، واضاعة فرص تنموية ثمينة، وصولاً إلى الدرك الأسفل الذي يعيش فيه عرب اليوم.

الصبر الاستراتيجي هو الانتظار الواعي الذي يضع نصب عينيه الهدف الجماعي، فيما يقوم بتحسين الفرص والتقدم خطوات نحو الأمام؛ الأمر الذي يجعل الهدف المنشود يقترب يوما بعد يوم. اما الذكاء التكتيكي فهو فعل يُكْمِل الصبر الاستراتيجي، فيما يرفض فكرة انتظار مجيء الظروف الملائمة، ويقوم بتحديد معالم الطريق إلى الهدف، وإعداد خطط علمية تربط الواقع بالهدف، وتسهم في تشكيل ظروف الواقع لتصبح أكثر ملائمة لتحقيقه. وهذا يعني أن العمل الذي تتوفر له امكانات النجاح لا بد وأن يقوم على الصبر الاستراتيجي الذي يعكس موقفا مبدئيا، والتكتيك الفاعل الذي يعكس وعيا بان الزمن لا يتوقف عن المسير. إذ فيما يشكل الصبر الاستراتيجي مرجعية العمل، يشكل التكتيك الذكي الآلية التي يستخدمها المجتمع للتقدم نحو الأمام، فيما يشكل الاثنان معا خطة الوصول إلى الهدف المنشود.

يُعتبر عامل الزمن من أهم أدوات صنع التاريخ والتعامل مع تحديات الحياة؛ إذ من خلال اللجوء إلى الصبر الاستراتيجي والذكاء التكتيكي يمكن تحقيق الكثير من الأهداف الخاصة والعامة. فعلى سبيل المثال، إذا كانت القضية الأهم هي قضية صراع مع عدو في حالة تراجع، فإن الصبر يكون هو الاسلوب الأفضل للتعامل مع العدو هذا، لان عامل الزمن قد يكون كافيا وحده لتحقيق الهدف المنشود. أما إذا كانت قوة العدو ومكانته الدولية في تزايد، أو أن القوة الذاتية في تراجع، فإن الصبر يصبح انهزامية وجهل، لأن عامل الزمن في الحالة هذه يخدم العدو، ويساعده على كسب المزيد من أسباب القوة والانتصار في نهاية المطاف. وهذا يعني أنه حين تكون قوة العدو في تزايد والقوة الذاتية ثابتة او في تراجع، فإن الفعل يكون هو الأسلوب الذي لا عنى عنه لمواجهة العدو، بتوجيه ضربات متتالية له تضعف إرادته، وتفرض عليه إعادة حساباته قبل فوات الاوان.

إن استخدام عامل الزمن بشكل جيد يعتمد على القدرة على قراءة المستقبل، وتحديد اتجاهات التغيير وموازين القوى الإقليمية والدولية، والتعرف على العوامل المؤثرة في مساراتها. حين تكون المؤشرات تصب في مصلحة العدو، يكون الخيار الأفضل هو الفعل القادر على تحقيق انجازات تختصر المسافة بين الواقع والهدف. أما حين تكون المؤشرات في غير صالح العدو، فإن الصبر يكون هو الخيار الأفضل، لأن التحرك قد يوقظ العدو من سباته، ويدفعه نحو استعادة زمام المبادرة. ولما كانت موازين القوى تتصف بديمومة التغيير والتبدل، وخضوعها لتأثير عوامل كثيرة ليس باستطاعة جهة ان تتحكم فيها، فإن النظرة لعامل الزمن لا بد وأن تكون ديناميكية، تتابع التطورات وتقترح خططا للاستفادة من كل تغيير، إما بتحقيق بعض المنافع او بدرء بعض الضرر. وهذا يعني أن عامل الزمن يعمل دوما لصالح العدو وضد العدو، ولصالح الجهة المعنية وضدها، وذلك تبعا لقدرة كل جهة على قراءة المستقبل والتأثير في العوامل التي تقوم بتشكيل موازين القوى.

من ناحية أخرى، لا بد للمعنيين بالصبر أن يدركوا أن الصبر حالة ذهنية تقود الصابرين في كل الحالات إلى التواكل؛ الأمر الذي يجعل الصبر غير المقترن بالعمل موقفا سلبيًا يقود إلى تزييف الوعي العام، والحاق الضرر بالصابرين أنفسهم. في المقابل، الحركة التي تسير من دون رؤية تهيئها ومرجعيتها علمية وطنية تحدد لها معالم الطريق هي حركة فوضوية قد تضر ولا تنفع؛ إذ تعكس الحركة في حالة كهذه استهتارا وتصرفا غير واعي، ما يجعلها تستنفذ الكثير من طاقات المجتمع من

دون انجاز يذكر. وهذا يعني أن الموقف الاستراتيجي هو الصبر المقترن بالذكاء التكتيكي... صبر يرى المستقبل، ويتحرك بخطوات بطيئة ومدروسة نحو الهدف الأكبر. لذلك لا يكون الصبر استراتيجيا إلا إذا اقترن بذكاء تكتيكي تُجسده على الأرض حركة فاعلة تسعى لاضعاف إرادة العدو ومعنوياته قبل إمكاناته المادية. وهذا يعني انه لا معنى للصبر من دون حركة فاعلة، ولا معنى لحركة فاعلة من دون رؤية استراتيجية يشكل الصبر احد مكوناتها الأساسية، فالصبر الاستراتيجي والذكاء التكتيكي جناحان لطائر واحد، لا يتقدم مجتمع من دونهما، ولا يتسنى النجاح في غياب أي منهما.

د. محمد ربيع

www.yazour.com